الفصل الثانى

الديمقراطية والتعليم (*)

(*) ألقى تشومسكى هذا المقال فى محاضرة فى جامعة لويولا بشيكاجو، فى ١٩ أكتوبر عام ١٩٩٤م.

obeikan.com

obeikan.com

(٢)

«الديمقرطية والتعليم» هو الموضوع الذى تم اقتراحه على لأتحدث عنه -وأنا جد سعيد بذلك . وعند ذكر عبارة «الديمقراطية والتعليم» يقفز إلى أذهاننا فى التو مسيرة حياة وأعمال أحد المفكرين البارزين الذين ظهروا فى القرن الماضى، ألا وهو (چون ديوى)، الذى كرس الجزء الأكبر من حياته وتفكيره لهذا النوع من القضايا، وأعتقد أنه ينبغى علىَّ أن أعترف بأنى أهتم به على نحو خاص. فلقد كان لأفكاره تأثير شديد علىَّ فى سنوات تشكيلى ـ فى الواقع كانت بداية ذلك بالنسبة لى عندما كنت أناهز العامين، واستمر حتى الوقت الحالى. ويرجع هذا لأسباب عدة لن أخوض فيها؛ لكنها أسباب حقيقية.

ويبدو أن «چون ديوى» طوال الجزء الأكبر من حياته ـ لأنه أصبح بعد ذلك أكثر تشككًا ـ كان يشعر بأنه ربما تصير الإصلاحات فى المراحل الأولى من التعليم عاملاً كبيرًا يؤدى إلى التغيير الاجتماعى؛ لأنها قد تفضى إلى خلق مجتمع أكثر عدلاً وحرية؛ مجتمع على حد قوله : **«يكون فيه الهدف الأساسى وراء الإنتاج، ليس إنتاج السلع، لكن إنتاج بشر أحرار، يرتبط كل منهم بالآخر على أساس من المساواة»**. ويتعارض بشدة هذا الالتزام الرئيسى الذى يخيم على جميع أعمال وأفكار چون ديوى مع التيارين الأساسيين للحياة الاجتماعية والفكرية الحديثة. فيرتبط أحدهما والذى كان له أهمية قصوى فى الحقبة التى عاصرها ديوى ـ حيث كان يكتب فى عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضى عن هذه الأشياء ـ مع الاقتصاديات القيادية فى أوروبا الشرقية، وهى المنظومات التى أرسى قواعدها «لينين، وتروتسكى»، وتحولت إلى شر أكثر هولاً على يد «ستالين».

أما الآخر فهو المجتمع الصناعى الرأسمالى، الذى تم بناؤه فى الولايات المتحدة، وفى كثير من دول الغرب، ويحكمه أساسًا القطاع الخاص.

ويتشابه كلا النظامين فى بعض الطرق الأساسية، بما فى ذلك الأيديولوچية. ولقد كان كلاهما ـ ولا يزال أحدهما كذلك ـ منظومة شديدة الفاشية، عند النظر إلى جوهر ما كرسا أنفسهما إليه، وكذلك كانا يتعارضان بشدة، وبشكل مأساوى مع تقليد آخر، ألا وهو التقليد اليسارى المؤيد لمذهب الحرية الذى تمتد جذوره إلى قيم عصر التنوير؛ ولقد ضم هذا التقليد فى جنباته ليبراليين تقدميين على شاكلة چون ديوى، واشتراكيين مستقلين مثل برتراند راسل، وعناصر قيادية تنتمى إلى التيار الماركسى الرئيسى، وغالبًا غير البولشفى، وبالتأكيد على اشتراكيين متحررين، وحركات فوضوية متعددة، ناهيك عن الجوانب المهمة فى حركة العمال وبعض القطاعات الشعبية الأخرى.

وكان لليسار المستقل ـ الذى كان ينتمى إليه چون ديوى ـ جذور ثابتة فى الليبرالية الكلاسيكية، وفى رأيى أنه نشأ منها، ويتعارض بشدة مع التيارات الاستبدادية للمؤسسات الرأسمالية والاشتراكية للدولة وفكرها، بما فى ذلك الشكل المتطرف للاستبداد، والذى يُطلق عليه الآن فى الولايات المتحدة اسم «المحافظ». وما كان هذا النوع من المصطلحات إلا ليمتع «چورچ أورويل»(*) عند سماعه، ويجعل أى محافظ أصيل غير مستقر فى قبره، وذلك إذا كان هناك محافظ أصيل.

ولست فى حاجة لأن أؤكد أن تلك الصورة ليست بالصورة التقليدية، وذلك عندما أصيغ الوضع بشكل معتدل، لكنى أعتقد أن لها ميزة واحدة ـ على الأقل ـ ألا وهى ميزة الدقة. ولسوف أحاول أن أشرح السبب.

ولسوف أستطرد فى الحديث عن أحد موضوعات چون ديوى الرئيسية، ألا وهى أن «الهدف المطلق للإنتاج ليس إنتاج السلع، ولكن إنتاج بشر أحرار يرتبط كل منهم بالآخر على أساس المساواة» ويتضمن هذا بالطبع موضوع التعليم الذى كان محط اهتمامه الأساسى. فكما ذكر برتراند راسل أن هدف التعليم هو «أن

(*) چورچ أورويل (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) هو روائى إنجليزى ساخر كان ينتقد فى رواياته تطاحن قوى الغرب ومن أشهر أعماله «مزرعة الحيوانات» ـ المترجمة.

تحس قيمة الأشياء بخلاف الهيمنة»، وذلك من أجل المساعدة فى خلق «مواطنين حكماء يعيشون فى ظل مجتمع حر»، من أجل تشجيع خلق توليفة من الشعب تتمتع بالحرية وقدرة الفرد على الابتكار، مما يعنى أننا ننظر «للطفل كما ينظر البستانى لشجرة صغيرة، معتبراً إياها شيئًا ذا طبيعة جوهرية سوف تنمو وتتحول لصورة جديرة بالإعجاب، وذلك إذا أتيحت لها التربة الجيدة والهواء والضوء». وبالرغم من اختلاف جون ديوى وبرتراند راسل فى كثير من الموضوعات الأخرى، إلا أنهما اتفقا على ما يطلق عليه برتراند راسل اسم «المفهوم الإنسانى» الذى تمتد جذوره لحقبة التنوير، وهو فكرة أنه لا يجب اعتبار التعليم عملية تحاكى ملء إناء بالماء، لكن يجب بالأحرى اعتبارها عملية مساعدة زهرة لتنمو وفقًا لطريقة خاصة بها ـ وينتمى هذا المنظور الذى أحياه كلاهما إلى القرن الثامن عشر ـ ويمكن صياغة الأمر بطريقة أخرى، وهى توفير الظروف التى سوف تزدهر فيها الأنماط الابتكارية العادية.

واشترك جون ديوى، وبرتراند راسل أيضًا فى تفهم أن لتلك الأفكار الرائدة التى تنتمى إلى حقبة التنوير والليبرالية الكلاسيكية طبيعة ثورية، وكانا يصوغانها بشكل صحيح فى كتاباتهما التى ظهرت فى النصف الأول من القرن العشرين. وفى حالة ما إذا تم تنفيذ هذه الأفكار، لأمكن خلق بشر أحرار، قيمهم ليست تراكمات وهيمنة، لكن بالأحرى ارتباطًا حرًا على أساس من المساواة والمشاركة والمساعدة، تشترك عناصره على نحو متساو فى تحقيق الأهداف العامة التى تم التوصل إليها بشكل ديمقراطى. لكن كان الأزدراء ـ فقط ـ من نصيب ما أسماه آدم سميث **«الشعار الكريه لأسياد البشرية، الذى ينادى بكل شىء لنا، ولا شىء للآخرين»**. وذلك هو المفهوم الإرشادى الذى تعلمنا فى يومنا هذا أن نعجب به، ونبجله؛ ذلك لفناء القيم التقليدية تحت وطأة هجوم متواصل، ولقد قاد ما يسمى «المحافظون» هذا الهجوم الضارى فى عقود حديثة.

ومن الجدير أن نستغرق بعضًا من الوقت فى ملاحظة حدة ومأسوية صدام القيم بين المفهوم الإنسانى الذى ترجع أصوله إلى عصر التنوير، الذى استمرت مبادئه لدى مفكرين مهمين خلال القرن العشرين مثل برتراند راسل وجون

ديوى، وذلك من ناحية، ومن الناحية الأخرى بين المذاهب السائدة فى العصر الحالى التى شجبها آدم سميث بوصفها «شعار كريه»، وكذلك شجبتها الصحافة النشطة والنابضة بالحياة الصادرة عن الطبقة العاملة خلال قرن ماض، التى أدانت ما أسمته بـ «روح العصر الجديدة ـ جمع الثروات ـ نسيان كل شىء خلا الذات» ـ أى الشعار الكريه الذى ذكره آدم سميث. ومن الجدير جدّا بالملاحظة تتبع تطور القيم عند مفكر ظهر فى مرحلة سابقة للرأسمالية، مثل آدم سميث الذى أكد على أهمية التعاطف والهدف من المساواة التامة، وحقوق الإنسان الأساسية فى العمل الإبداعى، ومفارقة ذلك مع الذين يمجدون فى الحاضر «روح العصر الجديدة»، وفى بعض الأحيان يقحمون اسم آدم سميث دون خجل.

فعلى سبيل المثال، كتب «جيمس بوكانان ـ James Buchanan» ـ الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد ـ أن ما يسعى إليه كل شخص فى «وضع مثالى» هو: «أن يصبح سيدًا لعالم من العبيد». فما تسعى إليه ـ فى حالة إذا كنت لم تلاحظ ـ هو شىء كان آدم سميث يراه بكل بساطة مَرَضِيا.

وأفضل كتاب أعرفه تم كتابته عن الأفكار الفعلية لآدم سميث، هو ذاك الذى سطرته البروفيسور «باتريشيا فيرهان» والتى تعمل هنا فى «لويولا» وظهر تحت اسم: «آدم سميث وميراثه من أجل الرأسمالية الحديثة». إلا أنه بالطبع أفضل شىء على الإطلاق هو قراءة الأصل.

وأكثر الأمثلة التوضيحية مأساوية عن «روح العصر الجديد» وقيمه، هو التعليق الذى تتناقله الصحافة حاليًا عن الصعوبات التى نواجهها للنهوض بسكان أوروبا الشرقية. وكما تعلمون نغدق الآن عليهم ـ المستفيدين الجدد منا ـ حبنا وحناننا الذى أمطرنا به من قبل الدول الموضوعة تحت وصايتنا، مثل: أمريكا اللاتينية والفليبين... إلخ، وكانت النتائج واضحة بشكل مأساوى ومتناسقة فى الرعب، لكنها كانت أيضًا ـ وبمعجزة ـ خالية من أى دروس توضح ماهيتنا وماهية ما نفعله.

وقد يسأل أحدهم عن السبب. نواصل حاليًا فى كل مناسبة حمل عبء

النهوض بالشعوب التى تم تحريرها من الشيوعية، كما قمنا فى الماضى بتحرير شعوب هايتى، والبرازيل، وجواتيمالا، والفليبين، وسكان أمريكا الأصليين، والعبيد الأفريقيين وغيرهم. وتصدر فى الوقت الحالى جريدة نيويورك تايمز سلسلة شائقة من المقالات تتناول تلك المشكلات المختلفة، وتتعمق هذه المقالات بشكل ممتع فى القيم السائدة. فكانت إحدى المقالات ـ على سبيل المثال ـ عن ألمانيا الشرقية، ولقد قام «ستيفن كينزر» بكتابتها واستهلها باقتباس على لسان أحد القساوسة الذين تزعموا الاحتجاجات الشعبية ضد النظام الشيوعى فى ألمانيا الشرقية. وصور القلق المتزايد إزاء ما يحدث بالمجتمع ويقول: «تدمر المنافسة الشرسة وشهوة المال إحساسنا بالجماعة، ويُقاسى تقريبًا كل فرد من الاكتئاب أو عدم الإحساس بالأمان»؛ لأن تلك السمات تسيطر على الروح الجديدة للعصر الذى نقوم فيه بتوجيه شعوب العالم المتخلفة.

وتطرق المقال التالى والذى قامت بكتابته «چين پيرلز» إلى ما نعتبره «نموذج العرض» أو قصة النجاح الحقيقية ألا وهى قصة پولندا، فكان العنوان الرئيسى لهذا المقال: «الدروب السريعة والبطيئة فى الطريق الرأسمالى». وتدور القصة حول أن البعض قد استوعب لب المسألة فى حين أنه لا يزال آخرون فى المؤخرة. وتسوق فى هذا مثالاً عن طالب جيد، وآخر عن طالب بطىء الفهم. يمتلك الطالب الجيد مصنعًا صغيرًا، وهذا «مثال ناجح» عن أفضل شىء فى پولندا الحديثة التى أصبحت رأسمالية، وتنتج پولندا فساتين الزفاف المعقدة التصميم، وتقوم ببيعها للأغنياء من الألمان، وللقطاع الصغير من البولنديين شديدى الثراء. ويحدث ذلك فى دولة استشرى فيها الفقر لأكثر من الضعف منذ بدء حركة الإصلاح ـ وطبقًا لما ورد بدراسة صادرة عن البنك الدولى فى شهر يوليو الماضى ـ تراجعت معدلات الدخل بمقدار ٣٠٪؛ بيد أن بمقدور الشعب الجائع العاطل أن ينظر لفساتين الزفاف معقدة التصميم المعروضة فى واجهات المحلات، وأن يثنى على الروح الجديدة للعصر، ومن ثم يمكن لنا استيعاب الإطراء على پولندا؛ بوصفها قصة نجاح عظيمة لإنجازاتنا.

ويوضح طالب جيد أنه «من المحتم أن يتعلم الشعب أن يفهم أنه يحارب من

أجل نفسه، وأنه لا يستطيع الاعتماد على الآخرين». وهنا تصف «چين پيرلز» برنامجا تدريبيّا تقوم بإدارته وتحاول فيه زرع القيم الأمريكية بين فئات الشعب الذين لا يزالون أسرى شعارات غسلت عقولهم من قبل مثل «أنا عامل فى منجم، أيوجد آخر أفضل منى؟»، ينبغى انتزاع هذه الأشياء من عقولهم، فهناك كثيرون أفضل منهم، ويتضمن ذلك من بمقدورهم تصميم فساتين الزفاف للأثرياء والألمان. هذا هو المثال الذى وقع الاختيار عليه لإيضاح قصة نجاح القيم الأمريكية، لكن هناك قصص فشل لا تزال فى الدروب البطيئة فى الطريق الرأسمالى.

واختارت پيرلز أحدهم لتسوقه مثالاً على هذا، عامل منجم ناهز الأربعين من عمره «يجلس فى حجرة معيشته ذات السقف الخشبى، ويتباهى بثمرة مجهوده فى ظل الحكم الشيوعى ـ والثمرة هذه عبارة عن جهاز تليفزيون، وأثاث مريح، ومطبخ حديث براق»، ويتساءل عن «سبب وجوده داخل المنزل عاطلا ويعيش على المعونة المالية المقدمة له من الدولة؟!»؛ ذلك لأنه لم يستعب الروح الجديدة للعصر التى تحض على جنى الثروات ونسيان كل شىء خلا الذات بدلاً من «أنا عامل فى منجم، أيوجد آخر أفضل منى؟». وتتوالى سلسلة المقالات على هذا المنوال، ومن الممتع أن نقرأ ونشاهد ما يتم اعتباره من المسلمات.

ويلخص ما يدور فى أوروپا الشرقية الأحداث التى جرت لفترات طويلة فى البقاع الواقعة تحت سيطرتنا فى العالم الثالث، ووجدت فيها قصة أطول، فذلك شىء مألوف فى تاريخنا، وتاريخ إنجلترا من قبلنا.

وصدر مؤخرًا كتاب لمؤرخ عمال متميز بجامعة ييل (Yale)، وهو داڤيد مونتجمرى ـ يوضح فيه أن أمريكا الحديثة نشأت فوق احتجاجات العمال ـ ولقد أصاب فى هذا تمامًا. وكانت تلك الاحتجاجات قوية وجريئة، وبخاصة فى الطبقة العاملة والصحافة القومية التى ازدهرت فى الولايات المتحدة منذ باكورة القرن التاسع عشر حتى حقبة خمسينيات القرن العشرين، عندما دمرها فى نهاية الأمر نفوذ القطاع الخاص. وحدث الشىء ذاته لمثيلتها فى انجلترا بعد عشر

سنوات تالية. وأجرى نورمان وير أول دراسة كبرى عن هذا الموضوع فى عام (١٩٢٤م)، ولا تزال تلك الدراسة توضح الموقف بجلاء، وتم نشرها هنا فى شيكاجو ثم أعيد طبعها مؤخراً على يد إيڤان دى وهو أحد الناشرين المحليين. وبالفعل تستحق هذه الدراسة القراءة؛ لأنها شديدة الأهمية فى التاريخ الاجتماعى.

وبالاستناد إلى الصحافة المحلية، يصف نورمان وير كيف كان يجب إدخال منظومة القيم التى نادت بها قوى القطاع الخاص فى رءوس العامة الذين كان يجب أن نعلمهم أن ينبذوا المشاعر الإنسانية الطبيعية، وأن يستبدلوا بها الروح الجديدة للعصر، كما كانوا يطلقون عليها. ويستعرض صحافة منتصف القرن التاسع عشر الأساسية الخاصة بالطبقة العاملة، والتى كانت غالبًا ـ بالمصادفة ـ تديرها نساء الطبقة العاملة. وكانت الموضوعات المطروحة بها ثابتة لفترة طويلة. وكانت تهتم بما كانوا يسمونه «الانحلال»، وفقدان الكرامة والاستقلال، وفقدان احترام الذات، وتوارى العامل كإنسان، والانخفاض الحاد فى المستوى الثقافى، والمكاسب الثقافية، حيث خضع العمال لما كان يسمى بـ «أجر العبودية».

ومن المشكلات المأساوية جدّا والتى تحاكى مشكلاتنا فى الوقت الحالى، التراجع الحاد فيما نطلق عليه اسم «الثقافة العليا»، وهى قراءة ما قد ننعتهم بفتيات المصانع العاملات، والحرفيين وطبقات العمال الأخرى، للكلاسيكيات والأدب المعاصر، فكان الحرفيون يؤجرون آخرين ليقرءوا لهم، وهم يعملون؛ ذلك لأنهم كانوا مهتمين بالقراءة، ولديهم مكتبات، ومن ثم كان يجب لكل هذا أن يندثر.

وبتأويل ما ورد بصحافة العمال، ما وصفه العمال بأنه عندما تقوم ببيع منتجاتك تحتفظ بشخصك، لكن عندما تقوم ببيع مجهودك فإنك تقوم ببيع نفسك، وتخسر حقوق الأحرار من البشر، وتتحول إلى تابع للمؤسسات العملاقة المملوكة «للطبقة الأرستقراطية ذات المال» التى «تهدد بفناء كل من يجرؤ على مساءلة حقهم فى الاستعباد والكبت». و«ينبغى على من يعملون

بالمصانع أن يكونوا ملاكها»، بدلا من تبوء مكانة آلات يسوقها «طاغية» القطاع الخاص الذى يُحصن «مبادئ الملكية على أرض ديمقراطية»؛ لأن فى إطار مفاهيم الإقطاعية التجارية الجديدة، يسوقون لمراتب أدنى الحرية، والحقوق، والحضارة، والصحة، والأخلاق، والفكر.

وهذا الكلام قيل قبل أى تأثير من قبل الماركسية بأمد بعيد، وذلك فى حالة ما إذا اختلط عليك الأمر. فهم جماعة من العمال الأمريكيين يتحدثون عن تجربتهم فى أربعينيات القرن التاسع عشر. وأدانت أيضًا صحف العمال ما أطلقوا عليه اسم «الكهنوت الذى يتم شراؤه»، ويشيرون فى ذلك إلى وسائل الإعلام، والجامعات، وطبقة المفكرين ـ وهى طبقة المدافعين عن العقائد والقضايا ـ الذين أرادوا تبرير الاستبداد المطلق الذى أصبح الروح الجديدة للعصر، وأن يحشوا رءوس العامة بقيمه المهينة القذرة.

ولقد أعلن أحد الرواد الأوائل لاتحاد العمال الأمريكى ـ واسمه هنرى ديماريست لويد ـ منذ حوالى قرن من الزمان عن المنظور النموذجى للأمر، عندما وصف بعثة حركة العمال بأنه يجب عليها تخطى «خطايا وخزعبلات السوق»، والدفاع عن الديمقراطية من خلال بسطها حتى تسيطر على الصناعة عن طريق العمال.

وقد كان كل ذلك مفهومًا تمامًا لمؤسسى حركة الليبرالية الكلاسيكية مثل ـ على سبيل المثال ـ ڤيلهام ڤون هومبولدت، الذى كانت أفكاره مصدر إلهام چون ستيوارت ميل، الذى رأى أن العمل الإبداعى الذى يتم القيام به بحرية بالتعاون مع آخرين؛ هو القيمة الجوهرية للحياة الإنسانية ـ وهو فى ذلك يماثل كثيرًا ما كان معاصره آدم سميث ينادى به.

وذكر ڤيلهام ڤون هومبولدت فى كتاباته أنه إذا أنتج شخص شيئا ما، فإننا قد نعجب بما صنعه، لكننا سوف نحتقر ما هو عليه، لأنه ليس إنسانًا حقيقيًا يتصرف وفق ما يريد. ومهمة الكهنوت «المشتَرى» هى تقويض هذه القيم وتدميرها فيما بين من يقومون ببيع أنفسهم لسوق العمل. ولأسباب مشابهة، حذر آدم سميث

من أنه يجب على الحكومات فى أى مجتمع متحضر أن تتدخل لتمنع عملية تقسيم العمل لتحويل الناس إلى «أغبياء وجهلاء لأقصى قدر يستطيع مخلوق أن ينحط إليه». وبنى آدم سميث تأييده ـ الدقيق ـ للأسواق على فرضية أنه إذا كانت الأحوال حرة بالفعل سوف تفضى الأسواق إلى مساواة تامة. وكان ذلك ما تذرعوا به كمبرر أخلاقى، لكن نسى أعضاء الكهنوت «المشتَرون» كل هذا؛ فلقد كان لديهم رواية أخرى.

ويعد چون ديوى وبرتراند راسل، اثنين من رواد القرن العشرين الذين ورثوا هذا التقليد الذى تمتد جذوره إلى حقبة التنوير والليبرالية الكلاسيكية، والأكثر إثارة هو الرقم القياسى الملهم عن النضال وتنظيم واحتجاج العمال من الرجال والنساء منذ باكورة القرن التاسع عشر؛ فى سعيهم إلى الحصول على الحرية والعدل، مع الاحتفاظ بالحقوق التى كانت مخولة لهم من قبل؛ لأن الحكم الاستبدادى الحديث للقوى الخاصة الذى تسانده الدولة، امتدت أذرعه لكل مكان.

وعمل توماس چيفرسون فى عام (١٨١٦م) تقريبًا على صياغة القضية الأساسية بقدر كبير من الوضوح. وسبق ذلك رسوخ قواعد الثورة الصناعية فى المستعمرات القديمة، لكن كان يمكنك أن تلمس التطورات. وفى آخر أيامه وبعد أن لاحظ ما يحدث؛ تولد لدى توماس چيفرسون قلق شديد إزاء مستقبل التجربة الديمقراطية، وخشى تزايد الشكل الجديد من الحكم الاستبدادى الذى كان ينذر بشؤم أكثر من ذلك الذى تمت الإطاحة به خلال الثورة الأمريكية التى كان توماس چيفرسون أحد قادتها. وفى آخر أيامه، قام بالتفرقة فى المعنى بين ما أطلق عليه اسم «الأرستقراطيين» و«الديمقراطيين».

فالأرستقراطيون هم «من يخشون الناس ولا يثقون بهم، ويأملون أن يسحبوا من تحت أقدامهم جميع السلطات، لوضعها فى أيدى الطبقات العليا».

وعلى النقيض الديمقراطيون «يطابقون أنفسهم مع العامة ويعيرونهم ثقتهم ويقدرونهم ويَعُدّونهم المستودع الأمين والآمن للصالح العام، وذلك إن لم يكونوا دومًا الأكثر حكمة». وكان الأرستقراطيون فى عهد چيفرسون دعاة

الدولة الرأسمالية التى كانت آخذة فى الظهور، والتى كان ينظر إليها چيفرسون بازدراء؛ لأنه كان يعلم ـ وبوضوح ـ التناقض الجلى تماما بين الديمقراطية والرأسمالية، أو بشكل أكثر دقة بين ما قد نسميه بالرأسمالية الموجودة، التى ترشدها وتدعمها الدول التنموية ذات النفوذ، كما كان الحال فى انجلترا والولايات المتحدة، وبالتأكيد فى كل مكان آخر.

وتمت مساندة هذا التناقض الجوهرى عندما مُنحت تكوينات المؤسسات سلطات متزايدة، وذلك ليس عن طريق إجراءات ديمقراطية، ولكن أساسًا عن طريق المحاكم والمحامين، الذين غيروا مسار ما أسماه توماس چيفرسون «المؤسسات المصرفية والشركات المالية»، التى قال عنها إنها قد تدمر الحرية والتى كان يرى بالعين المجردة بدايتها فى عصره. فلقد أجرى تحويلها ـ وكان ذلك غالبًا على أيدى المحاكم والمحامين ـ إلى «أشخاص خالدين» تفوق قواهم وحقوقهم أسوأ أضغاث أحلام المفكرين الذين ظهروا فى المرحلة السابقة للرأسمالية مثل آدم سميث، أو توماس چيفرسون. ولقد حذر آدم سميث من ذلك، بالرغم من أنه لم يكن بمقدوره إلا أن يلحظ بالكاد بداياته.

وتم تطوير تمييز توماس چيفرسون بين الأرستقراطيين والديمقراطيين بعد ذلك بزهاء نصف قرن، على يد باكونين المفكر والناشط الفوضوى، فكان بالفعل أحد تنبؤات العلوم الاجتماعية القليلة التى تم تحقيقها على الإطلاق، وكان ينبغى أن تتبوأ مكانة مبجلة فى أى منهج أكاديمى جاد يعنى بالعلوم الاجتماعية والإنسانيات، من أجل هذا السبب وحده. ورجوعًا للقرن التاسع عشر، تنبأ باكونين بأن طليعة أهل الفكر الآخذة فى الظهور قد تتبع واحدًا من مسارين متوازيين، يؤدى أحدهما لاستغلال النضال الشعبى للاستحواذ على النفوذ فى الدولة، وأن يتحولوا إلى ما أسماه «البيروقراطية الحمراء»، التى سوف تفرض أقسى وأكثر صور الحكم شرًا فى التاريخ. وكان ذلك أحد المسارين.

أما المسار الآخر، فلقد ذكر باكونين أنه سوف يتألف ممن اكتشفوا أن القوة الحقيقية تكمن فى مكان آخر، وأنهم سوف يصيرون « كهنتها الذين تم شراؤهم»،

وذلك باقتباس المصطلح الذى ورد على لسان الصحافة العمالية، وسوف يقومون بخدمة الأسياد الحقيقيين فى منظومات القوة الخاصة التى تساندها الدولة، سواء أكانوا فى شكل مدراء، أو مدافعين «ممن يضربون الشعب بعصا الشعب» ـ وذلك كما صاغها ـ فى الديمقراطيات الرأسمالية التابعة للدولة. ويلاحظ أن أوجه التشابه جد مذهلة، أنها سارية حتى الوقت الحالى، تساعد فى تفسير التحولات السريعة التى ينتقل فيها الناس من وضع لآخر. ويبدو ذلك تحولاً غريبًا إلا أنه فى حقيقة الأمر أيديولوچيا عامة. ونلاحظ ذلك حاليًا فى أوروبا الشرقية فى الجماعة التى يطلق عليها فى بعض الأحيان اسم رموز الرأسمالية، وهم الطبقة الشيوعية الحاكمة قديمًا، الذين أصبحوا حاليًا الأكثر تحمسًا للسوق، يزدادون ثراءً، فى حين تتحول مجتمعاتهم إلى النموذج المعروف لمجتمعات العالم الثالث. وكان الانتقال سهلاً؛ لأنه قائم أساسًا على نفس الإطار الفكرى. ويعد الانتقال المشابه من الدفاع عن فكر ستالين إلى «الاحتفاء بأمريكا» نمطًا معروفًا فى التاريخ الحديث، ولا يتطلب تحولاً كبيرًا فى القيم، بل مجرد تحول فى طريقة النظر إلى أين تقع السلطة.

الخوف من الديمقراطية راسخ الأساس، فقد صاغ ذلك بجلاء ألكسندر هاميلتون(*)، عندما وصف الشعب بأنهم «وحش ضخم» يجب أن تحمى الصفوة الحاكمة نفسها منه.

وصارت تلك الأفكار أكثر رسوخًا فى دوائر المتعلمين، فلقد تحولت مخاوف چيفرسون، وتنبؤات باكونين إلى واقع ملموس، وعبر بجلاء شديد روبرت لانسينج وزير خارجية الرئيس ودرو ويلسون عن السلوك الأساسى لذلك القرن بجلاء، وهى مواقف أفضت إلى الخوف الأحمر (Red Scare)، عند ويلسون ـ كما أطلق عليها ـ وعملت على تدمير العمال والفكر المستقل على مدار عشر سنوات. وحذر لانسينج من خطر السماح «للجهلاء وعامة البشر غير المؤهلين» أن يصبحوا «المهيمنين على وجه الأرض»، أو حتى الطبقة ذات النفوذ؛ ذلك لأنه

(*) وزير مالية واشنطن، وأحد القادة والمنظرين المهمين فى حكومته، وقد قُتل فى مبارزة تحد ـ المترجمة.

اعتقد أن البلاشفة يعتزمون ذلك، ويطلق دومًا العنان لرد الفعل الهستيرى والخاطئ تمامًا بين الناس الذين يشعرون أن نفوذهم أصبح مهددا.

أعلن المفكرون التقدميون فى تلك الحقبة عن هذه المخاوف على نحو شديد الوضوح، وربما تزعمهم فى ذلك والتر ليبمان فى مقالاته عن الديمقراطية التى صدرت أساسًا فى عشرينيات القرن العشرين. وكان والتر ليبمان عميد الصحافة الأمريكية، وواحدًا من أبرز المعلقين على الشئون العامة لسنوات عدة، وصرح ناصحًا «يتحتم أن تتبوأ العامة مكانتها»، حتى يتسنى «للمسئولين من الرجال» ألا «يؤرق حياتهم صوت وطء أقدام وضجيج القطيع المنذهل»، الذين أسماهم هاميلتون (الوحش). وواصل والترليبمان قوله مؤكدًا أنه فى أى نظام ديمقراطى يؤدى هؤلاء «الجهلاء والدخلاء الفضوليون» «وظيفة»، ووظيفتهم هى أن يصيروا «مشاهدين مهتمين بمتابعة الأحداث»، لكن ليس «مشاركين»، ويتعين عليهم أن يعيروا ثقلهم على نحو دورى لأحد أفراد الطبقة القيادية، يسمى ذلك بالانتخابات، وبعد ذلك من المفترض أن يعودوا إلى شئونهم الخاصة.

وفى الواقع أصبحت المفاهيم المشابهة لذلك جزءًا من النظرية الأكاديمية الرئيسية فى ذاك الوقت تقريبًا.

وصرح ويليام شبرد عام (١٩٣٤م)، فى الخطاب الرئاسى للمؤسسة الأمريكية للعلوم السياسية مجادلاً أنه ينبغى أن تؤول الحكومة إلى أيدى « طبقة أرستقراطية تتمتع بالحصافة والنفوذ»، فى حين يجب ألا نسمح «للجهلاء والذين لا يعلمون والعناصر المعادية للمجتمع»، أن يسيطروا على الانتخابات؛ لأنه اعتقد ـ وكان اعتقاده خاطئًا ـ أنهم سيطروا على الانتخابات فى الماضى. وكتب «هارولد لاسويل» وهو أحد مؤسسى العلوم السياسية الحديثة، وكذلك أحد مؤسسى مجال الاتصالات فى «موسوعة العلوم الاجتماعية» عام (١٩٣٣م أو ١٩٣٤م)، أن الأساليب الدعائية الحديثة التى نقحها على نحو مبهر الليبراليون الموالون لويلسون، أرشدت عن السبيل لكيفية عدم خروج العامة عن الطابور.

فبهرت إنجازات ويلسون الدعائية الآخرين أثناء الحرب العالمية ـ بما فى ذلك

أدولف هتلر، لكنها بهرت أكثر وبشكل عنيف مجتمع الأعمال الأمريكى، مما أدى إلى حدوث توسع ضخم فى صناعة العلاقات العامة التى تم تخصيصها للسيطرة على عقول العامة كما اعتاد صياغتها الدعاة فى أيام أكثر صدقًا، وذلك مثلما هو مكتوب فى موسوعة العلوم الاجتماعية، عندما وصف هارولد لاسويل ما الذى تحدث عنه بوصفه دعاية، ولا نستخدم هذا المصطلح؛ فنحن أكثر تحضرًا.

ودعا هارولد لاسويل بوصفه عالمًا سياسيًا إلى استخدام أكثر تحضرًا لأسلوب جديد من السيطرة على العامة، وهذا الأسلوب صنعته الدعاية الحديثة، وأعلن أن ذلك قد يمكن الأذكياء فى هذا المجتمع ـ الحكام الطبيعيون ـ أن يتخطوا تهديد الوحش العظيم الذى قد يقوض النظام بسبب ـ كما صاغ لاسويل حرفيا ـ «جهل وغباء العامة».

يجب علينا ألا نخضع «للدوجماتيات الديمقراطية عن رجال يعتبرون أفضل قضاة لاهتماماتهم»، وأفضل القضاة هم الصفوة الذين يجب أن نضمن لهم وسائل فرض إرادتهم؛ وذلك للخير العام. أو بتعبير آخر هؤلاء القضاة هم الأرستقراطيون الذين تكلم عنهم چيفرسون.

ويمثل ليبمان ولاسويل هامش الآراء الأكثر ليبرالية وتقدمية؛ لأنه على الأقل يمنح الوحش دور المتفرج. ويأتى كرد فعل من الذين نسميهم فى العصر الراهن ـ على نحو خاطئ ـ بالمحافظين. وفكر أصحاب رد الفعل الدولانيون الريجانيون (الموالون لفكر الرئيس ريجان) أنه لا يجب حتى منح العامة ـ أو الوحش ـ دور المتفرج. **ويفسر ذلك ولعهم بالعمليات الإرهابية السرية التى لم تكن سرًا على أى فرد كان سوى العامة من الأمريكيين، وبالطبع لم تكن سرًا على ضحاياهم. وتم تخطيط العمليات الإرهابية السرية بشكل يترك عامة السكان داخل الدولة جهلاء. ونادوا أيضًا بإجراءات رقابية غير مسبوقة على الإطلاق، وإجراءات دعائية ـ حماسية وإجراءات أخرى لضمان أن تعمل الدولة صاحبة النفوذ، ودائمة التدخل ـ التى ساندوها ـ بوصفها دولة تنعش ماليًا الأغنياء، دون أن يزعجها الغوغاء.**

وتعد الزيادة الهائلة فى الدعاية للأعمال على مر السنوات الأخيرة، والهجوم الذى شنته أخيراً المؤسسات اليمينية على الجامعات، والنزعات الأخرى السائدة فى الوقت الحالى، مظاهر أخرى لهذا القلق . وأيقظ هذه المخاوف ما أسمته الصفوة الليبرالية بـ «أزمة الديمقراطية» التى تطورت فى ستينيات القرن العشرين، عندما سعت فئات الشعب التى كانت فى الماضى مهمشة وغير مبالية ـ مثل النساء والشباب والعجائز والعمال إلى ما شابه ذلك ـ أن تدخل الساحة الشعبية، حيث ليس لهم الحق فى الدخول، على حد فهم الأرستقراطيين ذوى الفكر الصحيح .

وكان چون ديوى أحد الأعلام التاريخية للتقليد الليبرالى الكلاسيكى الذى ظهر فى عصر التنوير، وعارض ديوى حكم العقلاء، وانقضاض الأرستقراطيين ـ حسب تعريف چيفرسون لهم ـ سواء وجدوا مكانتهم فى الجزء الليبرالى، أو جزء أصحاب رد الفعل عليه، من هذا المنظور الضيق للفكر .

واستوعب ديوى بعمق أن «**السياسة هى الظل الذى تلقى به الأعمال الكبرى على المجتمع**» . وطالما صار الحال على هذا المنوال «فلن يغير تخفيف حدة الظل من الجوهر» . ويعنى هذا أن الإصلاحات ذات نفع محدود . وتتطلب الديمقراطية أن يتم نقل مصدر الظل ليس فقط بسبب هيمنته على الساحة السياسية، ولكن أيضًا بسبب أن جوهر المؤسسات ذات النفوذ الخاص يقوض الديمقراطية والحرية .

ويتناول چون ديوى مسألة القوة غير الديمقراطية ـ كما رآها بعقله ـ بشكل واضح ومباشر، فلقد صرح فى عشرينيات القرن العشرين قائلاً: «تكمن القوة فى الوقت الحالى فى سيطرة وسائل الإنتاج، والتبادل والدعاية والنقل والاتصالات، ومن يمتلكهم يحكم حياة الدولة»، حتى ولو ظلت الأشكال الديمقراطية باقية . «والأعمال من أجل الربح الخاص من خلال السيطرة الخاصة على البنوك والأراضى والصناعة، التى تغرزها الصحافة والوكلاء الصحفيون والدعاية والأفكار الدعائية» أى منظومة القوة الفعلية ـ مصدر القسر والسيطرة ـ وحتى يتم حلُّها، لن يمكننا الحديث بجدية عن الديمقراطية والحرية .

ولقد أمل ديوى أن نوع التعليم الذى يتحدث عنه ـ الذى ينتج بشرًا أحرارًا ـ قد يصبح إحدى الوسائل التى تقوض هول الاستبداد.

واسترسل چون ديوى قائلاً: فى مجتمع حر وديمقراطى يجب أن يكون العمال «أصحاب مصيرهم الصناعى» وليسوا معدات يؤجرها أصحاب الأعمال. وأبدى موافقة على بعض القضايا الجوهرية مع مؤسسى الليبرالية الكلاسيكية، ومع الوجدان الديمقراطى والمؤيد لمذهب الحرية الذى أحيا الحركات التى قامت بها الطبقة الشعبية العاملة، بدءًا من باكورة الثورة الصناعية وصولاً إلى هزيمتها أخيرًا بواسطة توليفة من العنف والدعاية. ومن ثم اعتقد چون ديوى عندما تطرق إلى مجال التعليم أنه لشىء «غير ليبرالى ولا أخلاقى» أن يتم تدريب الأطفال أن يعملوا «ليس بحرية وذكاء ولكن من أجل المكسب الذى يجنونه»، وفى هذه الحالة فإن نشاطهم «ليس حرًا؛ لأنهم لا يشتركون فيه بحرية»، مما يرجعنا ذلك مرة أخرى إلى مفهوم الليبرالية الكلاسيكية وحركات العمال. وعلى هذا اعتقد چون ديوى أنه يجب أيضًا أن تتحول الصناعة «من نظام إقطاعى إلى نظام اجتماعى ديمقراطى»، مبنى على أساس سيطرة العمال والمؤسسات الحرة، ويُعَدّ ذلك عودة مرة أخرى إلى مثاليات الفوضوية التقليدية التى مصدرها الليبرالية الكلاسيكية وعصر التنوير.

ومع انحسار نظام المبادئ تحت وطأة هجوم القوة الخاصة، وعلى وجه الخصوص خلال العقود القليلة الماضية، تبدو هذه القيم والمبادئ الأساسية المؤيدة للحرية غريبة، ومتطرفة، وربما كانت تخالف الروح الأمريكية، وذلك باستعارة أحد مصطلحات الفكر الشمولى الحالى المتفشى فى الغرب. وبمعرفة هذه التحولات، فمن المفيد أن نتذكر أن نوع الأفكار التى كان چون ديوى يعبر عنها هى أمريكية مثل فطيرة التفاح، وتكمن أصولها فى التقاليد الأمريكية نفسها، وبالضبط فى صميم تيارها الأساسى، وليست متأثرة بأى أيديولوچيات أجنبية خطيرة، ويتم الإطراء عليها بشكل طقسى، بالرغم من أنه دائمًا ما يتم تحريفها ونسيانها. ويُعَدّ كل هذا جزءًا من تدهور عمل الديمقراطية فى الوقت الحالى، وذلك ـ كما أعتقد ـ على الصعيد الأيديولوچى والمؤسسى.

التعليم ـ جزئيًا ـ هو مدارس وكليات، ومنظومات رسمية لبث المعلومات. ويعتبر ذلك أمرًا واقعيًا سواء أكان الهدف من التعليم هو التعليم بغرض تحقيق الحرية، والديمقراطية، كما نادى بذلك چون ديوى، أو التعليم بغرض فرض الطاعة والتبعية والتهميش، كما تتطلب المؤسسات المهيمنة. وقام خبير الاجتماع چيمس كولمان ـ الذى يعمل بجامعة شيكاجو، ويعد أحد الدارسين الرئيسيين لدراسة التعليم، وأثر التجربة فى حياة الأطفال- باستخلاص من عدة دراسات أن إجمالى تأثير خلفية منزل الطفل أكبر إلى حد كبير من إجمالى تأثير المدرسة وما شابهها، فى تحديد إنجازات الطالب. ومن ثم من المهم إلقاء نظرة على كيفية تشكيل السياسة الاجتماعية، والثقافة المهيمنة لهذه العوامل، وتأثير المنزل، وما شابه ذلك.

ويعد ذلك أحد الموضوعات الشائقة، ويسرت من هذا الاستقصاء دراسة أجرتها هيئة اليونيسف ونشرتها منذ عام مضى تحت اسم «إهمال الطفل فى المجتمعات الغنية»، وكتبتها خبيرة اقتصادية أمريكية مشهورة تدعى سيلڤيا آن هيوليت. فقامت الخبيرة الاقتصادية هيوليت بدراسة الخمسة عشر عامًا الماضية، أى منذ نهاية حقبة السبعينيات حتى مستهل تسعينيات القرن العشرين فى الأمم الغنية. وهى لا تتطرق إلى الحديث عن العالم الثالث، ولكن عن الدول الغنية، فلاحظت وجود انفصال هائل بين المجتمعات الأنجلو - أمريكية من ناحية، والمجتمعات الأوروپية واليابانية من ناحية أخرى، وصرحت أن النموذج الأنجلو ـ أمريكى الذى ترأسه الموالون لأفكار «ريجان وتاتشر» كان بمثابة كارثة بالنسبة للأطفال والعائلات، فى حين أن النموذجين الأوروپى واليابانى ـ على النقيض ـ قاما بتحسين وضعهما بصورة كبيرة من نقطة بداية أعلى، بالرغم من حقيقة أن تلك المجتمعات تعوزها المميزات الضخمة المتوافرة لدى المجتمعات الأنجلو ـ أمريكية. فبحوزة الولايات المتحدة ثروات ومزايا لا نظير لها، فى حين أن بحوزة المملكة المتحدة بريطانيا ـ التى تدهورت لحد بعيد وخصوصا فى ظل مارجريت تاتشر ـ بحوزتها الميزة الاقتصادية ـ على الأقل كعميل للولايات المتحدة، وكذلك مصدر أساسى للبترول فى عهد تاتشر. وكان ذلك أحد

العوامل التى جعلت الفشل الاقتصادى فى ظل مبادئ تاتشر مأسويا لحد كبير، كما أوضح ذلك المحافظون الإنجليز الحقيقيون مثل اللورد إيان جيلمور.

وتوضح سيلفيا آن هيوليت قائلة: إنه تعزى أزمة الأطفال والعائلات «إلى التفضيل الأيديولوچى للأسواق الحرة».

وأعتقد أنها نصف صائبة فى ذلك، حيث عارض المحافظون الريجانيون الأسواق الحرة، ونادوا بإنشاء أسواق للفقراء، وجاوزوا كثيرًا حتى أسلافهم الدولانيين، فى المطالبة والحصول على مستوى عال جدًا من المعونة العامة، وحماية الدولة للأغنياء. ومهما تختاره لوصف هذه الأيديولوچية الإرشادية، فليس من العدل أن تلوث الاسم الطيب لمبادئ المحافظة (Conservatism)، بتطبيقها على هذا الشكل الخاص للدولانية العنيفة، الخارجة عن القانون، والتى تعمل كرد فعل [على الليبرالية]، فبمقدورك أن تسميها ما تشاء، ولكن ليس محافظة (Conservatism) وليست بالسوق الحر. بيد أن هيوليت أصابت حقًا عندما رأت أن السوق الحر بالنسبة للفقراء هو كارثة على العائلات والأطفال.

وليس هناك مجال كبير للشك فى آثار ما تنعته هيوليت «بالروح المعادية للطفل التى أصبحت طليقة فى هذه البلاد»، أى فى البلاد الأنجلو ـ أمريكية، وبشكل جد مأسوى فى الولايات المتحدة، لكن كذلك أيضًا فى بريطانيا. وقام «النموذج الأنجلو ـ أمريكى الذى يحدوه الإهمال» المبنى على قاعدة إنشاء سوق الفقراء بخصخصة تربية الطفل بشكل واسع، حين جعل من المستحيل أن يقوم أغلب الشعب بتربية الأطفال، وكان هذا الهدف والسياسة التى تنطوى عليها المحافظة الريجانية ونظيرتها التاتشرية، وبالتالى كانت النتيجة كارثة بالنسبة للأطفال والعائلات.

وتضيف سيلفيا آن هيوليت قائلة: «عززت السياسة الاجتماعية فى النموذج الأوروبى مساندة العائلات والأطفال»، وذلك ليس بالشىء الخفى إلا بالنسبة لقراء الصحافة، كما هو معتاد. وعلى حد علمى تعد هذه الدراسة التى تم إجراؤها عام (١٩٩٣م)، مرتبطة على نحو حساس جدًا باهتماماتنا الحالية، مما

يوجب استعراضها فى أى صحيفة أو دورية، الأمر الذى لم يحدث، بالرغم من أن جريدة التايمز كرست الجزء الخاص باستعراض الكتب يوم الأحد لهذا الموضوع على نحو واسع، خيم عليه كتابة هواجس انخفاض ناتج حاصل الذكاء (Intelligence Quotient)، وانخفاض نتائج اختبارات (SAT)، والأسباب التى أفضت إلى هذا. فمثلاً فى مدينة نيويورك حيث يتم تطبيق هذه السياسات الاجتماعية، وتؤيدها جريدة التايمز **أصبح هناك ٤٠٪ من الأطفال تحت خط الفقر؛ يعانون من سوء التغذية والأمراض... إلخ**. لكن اتضح أن ذلك لا يمت بصلة لحاصل الذكاء، كما هو الحال بالنسبة لأى شىء تناقشه هيوليت عن النموذج الأنجلو ـ أمريكى الذى يحدوه الإهمال، فقد يكون السبب هو الچينات الوراثية السيئة، حيث يكتسب الشعب بطريقة ما چينات وراثية سيئة، ومن ثم أصبح هناك توقعات متعددة حول السبب المؤدى لذلك، فعلى سبيل المثال، ربما يرجع السبب إلى أن الأمهات السوداوات لا يقمن بتغذية أطفالهن، وأن السبب قد يكون منشأه فى إفريقيا، حيث كان المناخ عدوانيا!

ومن ثم قد تكون هذه هى الأسباب، وهذا شىء جد خطير، وذو أساس علمى، ولسوف يتجاهل كل هذا ـ على حد قول من أجرى المقال ـ المجتمع الديمقراطى، ويعلم جيداً المفوضون الذين تم تهذيبهم جيداً بشكل كاف، كيف يديرون الدفة بعيداً عن العوامل الواضحة ـ العوامل التى تمتد جذورها فى سياسة اجتماعية واضحة وجلية جدّا، وتتضح بشكل تام لأى شخص يحتفظ برأسه فى مكانها، وتصادف مناقشة ذلك بالتفصيل فى دراسة أجرتها خبيرة اقتصادية معروفة لمنظمة اليونيسف، والتى من المحتمل ألا ترى النور فى هذا البلد.

وتلك الحقائق ليست بالخفية، فأعلنت لجنة رفيعة المستوى من هيئات التعليم التابعة للدولة والمؤسسة الطبية الأمريكية «لم يوجد أبداً من قبل جيل من الأطفال أقل صحة، أو يحظى بمستوى أقل من العناية، أو أقل استعداداً لمجابهة أعباء الحياة، من والديهم عندما كانوا فى نفس العمر [مثل هذا الجيل]».

يُعَدّ ذلك تحولاً كبيراً فى مجتمع صناعى، وظهر فقط فى المجتمعات الأنجلو ـ

أمريكية حيث حكمت روح المعاداة للأطفال والأسرة، والتى استمرت على مدار خمسة عشر عامًا تحت ستار المحافظة وقيم الأسرة. ويُعَدّ هذا انتصارًا حقيقيًا للدعاية!

وظهر على الساحة تعبير رمزى عن هذه الكارثة عندما كتبت سليفيا آن هيوليت كتابها منذ عام مضى، وعلى أثر ذلك صدقت ١٤٦ دولة الميثاق الدولى لحقوق الطفل، إلا واحدة، ألا وهى الولايات المتحدة، ويُعَدّ الميثاق نموذجًا مألوفًا للمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، إلا أن - ولإحقاق الحق - من الملائم أن نضيف قائلين إن المحافظة الريجانية (Reaganite conservatism) كاثوليكية، فيما يتعلق بروح المعاداة للطفل والأسرة.

وصوتت المنظمة العالمية للصحة على إدانة مؤسسة (نستلة) بسبب تسويقها المسعور لتركيبة غذاء أطفال نجم عنه موت كثير من الأطفال، وكانت نتيجة التصويت (١١٨) صوتا إلى واحد، ولسوف أترك لخيالكم العنان كى تتصوروا من صاحب هذا الصوت. بيد أن هذه الواقعة تعتبر تافهة عند مقارنتها بما تطلق عليه منظمة الصحة العالمية اسم «الإبادة الجماعية الصامتة»، التى تتسبب فى الفتك بملايين من الأطفال سنويًا؛ نتيجة لسياسات السوق الحر بالنسبة للفقراء، ورفض الأغنياء منحهم مساعدة، وأكرر قائلاً: إنه يوجد بالولايات المتحدة واحد من أسوأ المعدلات، وأكثرها بخلاً فيما بين المجتمعات الغنية.

وتعبير رمزى آخر لهذه الكارثة هو الخط الجديد لإنتاج كروت المعايدة الذى أصدرته مؤسسة هولمارك، فنجد أنها كتبت على أحد هذه الكروت «أتمنى لك يوما رائعًا بالمدرسة»، ويخبرونك أنه يجب وضع هذا الكارت تحت علبة طعام الحبوب فى الصباح، حتى يتوافر للأطفال عندما يذهبون للمدرسة فى الصباح رسالة دافئة مملوءة بالرعاية. ثم نجد كارتا آخر مكتوبا عليه «أتمنى لو يتوافر لدى المزيد من الوقت حتى أغطيك»، وذاك الكارت ليوضع تحت الوسادة ليلاً عندما يأوى الطفل للنوم بمفرده. (تتعالى الضحكات). وتوجد كثير من الأمثلة الأخرى على شاكلة هذا. وتنجم هذه الكارثة المحدقة بالأطفال والعائلات جزئيًا من

انخفاض معدلات الأجور، وتم تخطيط سياسة الدولة بالنسبة للمؤسسات على مدار السنوات الأخيرة، وبخاصة فى ظل الموالين لريجان وتاتشر، بطريقة تعمل على إثراء قطاعات صغيرة، فى حين يتفاقم فقر الأغلبية، وبالفعل نجحت فى ذلك، ونضحت بالنتيجة المرجوة.

ويعنى ذلك أنه يتعين على أفراد الشعب أن يعملوا لساعات طويلة؛ حتى يؤمنوا قوتهم، وتعين على كثيرين من الآباء والأمهات- معًا- أن يعملوا ربما على مدار خمسين ساعة حتى يتمكنوا فقط من توفير الضروريات، فى حين تتزايد فى نفس الوقت مكاسب المؤسسات. وتخوض مجلة فورتشن فى الحديث عن المكاسب «الهائلة» التى بلغت معدلات ارتفاع جديدة بالنسبة لأغنى خمسمائة فى العالم.

والعامل الآخر الذى أسهم فى ذلك هو عدم توافر الأمن فى الوظيفة، أو كما يهوى الخبراء الاقتصاديون تسميته «المرونة فى أسواق العمل»، والتى تُعَدّ نذير خير فى ظل اللاهوت الأكاديمى، إلا أنها شىء مقيت بالنسبة للبشر، الذين لا يوضع مصيرهم فى حسابات تفكير متعقل. والمقصود بالمرونة أنه من الأجدر أن تعمل ساعات إضافية دون أن تعلم ما إذا كان سوف يتوافر لديك وظيفة فى الغد أم لا.

فلا يوجد عقود أو حقوق، وهذه هى المرونة. يجب عليك أن تتخلص من صرامة السوق، وبمقدور الخبراء الاقتصاديين تفسير ذلك. فعندما يعمل الأبوان لساعات إضافية ـ وكثيرون يفعلون ذلك؛ لانخفاض معدلات الدخل ـ لا يتطلب الأمر حذق شديدا للتنبؤ بالعواقب. وتوضح الإحصاءات ذاك الوضع، ويمكن لأى شخص مطالعتها فى الدراسة التى أعدتها سيلفيا آن هيوليت لليونيسف. فذكرت سيليفيا هيوليت أن مدة التواصل، وهى الفترة الفعلية التى يقضيها الأبوان مع أبنائهم، انحسرت بشدة خلال الخمسة والعشرين عامًا المنصرمة فى المجتمعات الأنجلو ـ أمريكية، وقد تفاقم الوضع فى السنوات الأخيرة حيث هبطت مدة التواصل إلى: من عشر إلى اثنتى عشرة ساعة أسبوعيّا.

ما يطلقون عليه «الوقت عالى الجودة»، وهى الفترة التى تقضيها دون أن تفعل أى شىء آخر، آخذ فى التراجع، فأدى ذلك إلى تدمير هوية العائلة وقيمها.

وأفضى الأمر إلى تزايد الاعتماد على التليفزيون للعناية بالطفل، مما أدى بدوره إلى ظهور ما يطلق عليه اسم «أطفال مفتاح المزلاج [الترباس]»، وهو تعبير يطلق على الأطفال الذين يبقون بمفردهم، ويعد ذلك عاملاً من عوامل ارتفاع معدلات تناول الأطفال المشروبات الكحولية، وتعاطى المخدرات، ومعدلات ممارسة العنف الإجرامى من قبل الأطفال ضد أطفال آخرين، وتأثيرات أخرى واضحة فى الصحة والتعليم والقدرة على المشاركة فى مجتمع ديمقراطى، أو حتى العيش فى كنفه، وتراجع معدلات ناتج الذكاء، لكن من المفترض ألا تلاحظ هذا. تذكر أن ذلك الوضع نتيجة لجينات وراثية سيئة [ربما من أفريقيا!].

لا يخضع أىٌ من هذه الأمور لقانون الطبيعة؛ لكونها سياسات اجتماعية تم انتقاؤها بوعى؛ لأنها مصممة لخدمة أهداف خاصة، ألا وهى إثراء أغنى خمسمائة فى العالم، ومفاقمة فقر الآخرين.

وفى أوروبا حيث الظروف أكثر قسوة، لكن السياسة لا توجهها نفس روح المعاداة للأسرة والطفل، تكمن الأهواء فى الاتجاه المخالف، والمستوى المعيشى للأطفال والأسر أفضل كثيرًا.

ومن الجدير بالذكر - واسمحوا لى أن أشدد على ذلك - لا يقتصر هذا الوضع على المجتمعات الأنجلو - أمريكية فقط، فنحن دولة كبيرة قوية، ذات نفوذ، ومن المذهل أن نلاحظ ماذا يحدث عندما تضطلع بعض الدول الواقعة فى حيز نفوذنا بسياسات نافعة للأسرة والطفل.

وهناك العديد من الأمثلة المذهلة، فتعد منطقتا الكاريبى وأمريكا الوسطى من المناطق التى نبسط عليها كامل سيطرتنا. واضطلعت دولتان بهذه السياسات ألا وهما: كوبا ونيكاراجوا، وحققت كلتهما فى الواقع نجاحًا ملحوظا.

ومما لا يجب أن يفاجئ أى شخص هو أن هاتين الدولتين هدف أساسى للعدوان الأمريكى، ونجحت أمريكا فى ذلك. وبفضل الحرب الإرهابية التى قمنا بشنها فى نيكارجوا، تراجعت للأسوأ معدلات الزيادة فى المستوى الصحى

وتحسن التعليم، وانحسار سوء تغذية الأطفال حتى أصبحت تقارب مثيلاتها فى هايتى. وبالنظر إلى كوبا طالت أكثر بالطبع مدة الحرب الإرهابية التى بدأها الرئيس چون كنيدى. لم يكن لهذه الحرب علاقة بالشيوعية، ولم يكن هناك أى روس بالجوار.

كانت تلك الحرب تمت بصلة إلى أمور أخرى، مثل حقيقة أن ذلك الشعب كان يكرس موارده للقطاعات الخطأ من الشعب، فكانوا يقومون بتحسين المستوى الصحى، ويهتمون بالأطفال وبسوء التغذية.

وعلى إثر هذا قمنا بشن حرب إرهابية كبيرة عليها، وتم نشر بعض مستندات المخابرات المركزية الأمريكية أخيراً، والتى تتحدث عن بعض تفاصيل الفترة الرئاسية لچون كنيدى، التى كانت سيئة بشكل كاف وتمتد آثارها حتى الوقت الحالى، وظهر بالفعل هجوم آخر منذ يومين فقط، تصدره فرض حظر تجارى عليها؛ لضمان أن هذا الشعب سوف يعانى حقّا. وتذرعت الولايات المتحدة على مدار سنوات بحجة أن هذه الإجراءات لها صلة بالروس، وذلك أمر مناف للواقع تمامًا، كما يتسنى لك فهمه عند النظر إلى ما حدث عند إرساء قواعد السياسات، وكما ظهر عندما اختفى الكيان الروسى. ومن هنا بدأت المهمة الحقيقية للكهنوت الذى تم شراؤه، فكان لزامًا عليهم ألا يلاحظوا بعد اختفاء روسيا أننا شددنا من وقع الهجوم على كوبا. ولسوف يكون من الغريب أن سبب الهجوم هو أن كوبا كانت المخفر الأمامى للشيوعيين، والإمبراطورية الروسية، لكن بمقدورنا أن نعالج ذلك.

ومن ثم بعد اختفاء الروس من الساحة، أصبح بالفعل من الممكن إحكام السيطرة عليهم [كوبا]، أصبحت الأوضاع أكثر سوءاً، فأرسل عضو الكونجرس الديمقراطى الليبرالى روبرت تورشيلى عرضًا من خلال الكونجرس، يدعو إلى حظر أى نوع من أنواع التبادل التجارى مع كوبا من خلال أى فرع من فروع أى مؤسسة أمريكية، أو أى مؤسسة أجنبية تستخدم أى أجزاء مصنعة بالولايات المتحدة.

يعد ذلك انتهاكًا سافرًا للقانون الدولى لدرجة أن جورج بوش الأب اعترض عليه باستخدام حق الڤيتو، لكنه كان مجبرًا على أن يقبله عندما تجاوزه أنصار بيل كلينتون فى سباقه الانتخابى الأخير، ومن ثم أجاز ذلك. ذهب بذلك مباشرة إلى الأمم المتحدة، حيث أدان الجميع موقف الولايات المتحدة. وفى التصويت النهائى استطاعت الولايات المتحدة أن تستميل إسرائيل فقط، وكان ذلك بشكل أتوماتيكى، وكذلك جعلت رومانيا تصوت لصالحها لسبب ما، فى حين صوت الآخرون بأجمعهم ضدها، ولم يدافع أحد عن موقف الولايات المتحدة؛ لأنه - كما أوضحت بريطانيا ودول أخرى - يعد انتهاكًا صارخًا للقانون الدولى. لكن كل ذلك لا يهم؛ لأنه من المهم جدًا أن نضع فى حيز التنفيذ الروح المعادية للطفل وللأسرة، وكذلك الإصرار على تشكيل مجتمعات مستقطبة لحد بعيد أينما حللنا. وإذا حاولت أى دولة أن تسلك طريقا مخالفا، فسوف نهتم بها أيضًا الاهتمام الكافى!.

ولا يزال هذا الوضع ساريا حتى الآن. هذا النوع من الأمور بمقدورك أن تفعل حقًا شيئًا حياله فى حالة الرغبة. ويوجد فى شيكاجو رعاة السلام وائتلاف شيكاجو - كوبا الذى يوجه قافلة لكوبا للتخفيف من وطأة الحصار التجارى، ويرسل معونات إنسانية، وأدوية، وكتبا طبية، ولبن مجفف للأطفال، ومساعدات أخرى. واسم هذا الائتلاف مذكور فى دليل الهاتف تحت اسم ائتلاف شيكاجو -كوبا، ويمكنك الاطلاع على رقم الهاتف بالدليل، وبمقدور أى فرد مهتم بمقاومة الروح المعادية للأطفال والأسرة التى تخيم على البلاد، والتى نصدرها بواسطة ممارسة العنف فى أى مكان آخر - أن يفعل ذلك، مثلما أن بمقدوره أن يفعل أشياء كثيرة على أرض الوطن.

ويجب علىّ أن أذكر أنه تم أخيرًا استعراض آثار آخر اقتراح ديمقراطى لتضييق الخناق على كوبا - والذى سرى بالفعل - فى أعداد دوريتين طبيتين رائدتين، وهما دورية «نيرولوجى»، ودرورية «فلوريدا جورنال أوف ميدسين» الصادرة فى هذا الشهر - شهر أكتوبر - واستعرضت الدوريتان ببساطة آثار ذلك. ووضعتا ما هو جلى فى دائرة الضوء. وتبين أن قوام زهاء ٩٠٪ من التجارة التى حظرتها

وثيقة كلينتون ـ تورشيلى ـ كانت من الأغذية والمساعدات الإنسانية والدواء، إلى ما شابه ذلك من سلع. **فعلى سبيل المثال منعت الولايات المتحدة إحدى الشركات السويدية التى حاولت تصدير جهاز لترشيح المياه المستخدمة فى عمل الأمصال؛ وذلك لأن بعض أجزائها أمريكية الصنع، بالفعل يجب أن نضيق عليهم الخناق بضراوة، يجب أن نتأكد أنه سوف يموت العديد من الأطفال. وكان أحد الآثار المترتبة على الحظر هو الارتفاع الحاد جدّا فى وفيات، وسوء تغذية الأطفال.**

ومن الآثار الأخرى تفشى مرض عصابى نادر فى كوبا تظاهر الجميع بأنهم لا يعرفون سببه، فظهر أن هذا المرض نتيجة لسوء التغذية، وهو مرض لم يخرج إلى النور منذ الحرب العالمية الثانية، حيث تفشى فى معسكرات السجون اليابانية.

ومن ثم نجحنا فى ذلك، فلا يتم توجيه الروح المعادية للأطفال والعائلة ضد الأطفال فى نيويورك فقط، بل امتد ذلك إلى الخارج بصورة أوسع.

وأشدد مرة أخرى أن الوضع مختلف فى أوروبا، وهناك أسباب لذلك. وأحد مظاهر الاختلاف الأكثر جوهرية، **هو أن الولايات المتحدة مجتمع يديره ـ بدرجة منقطعة النظير ـ رجال الأعمال، وانبثق عن ذلك تفشى شعار الأسياد الكريه [كل شىء لنا، ولا شىء للآخرين] لحد غير مسبوق أكثر مما قد تتوقعه، ويعتبر ذلك من ضمن الوسائل التى تسمح للديمقراطية بأن تعمل بصورة رسمية، بالرغم من أن معظم السكان فى الوقت الحالى مستنزفون بما تسميه الصحافة «السياسات المعادية»، والتى تعنى كره الحكومة وازدراء الأحزاب السياسية والعملية الديمقراطية برمتها، ويعد ذلك أيضًا انتصارًا كبيرًا للأرستقراطيين كما رآهم چيفرسون، والذى قصد بهم من يخشى ولا يثق فى الشعب، ويأمل أن يسحب بساط القوة بأكمله من تحت أقدام العامة لوضعه فى أيدى الطبقات الأعلى. ويعنى ذلك ـ كما يتناسب مع الوضع فى العصر الحالى ـ**

فى أيدى المؤسسات عابرة للدول [الدولية]، والولايات والمؤسسات شبه الحكومية التى تخدم مصالحهم.

وأحد الانتصارات الأخرى اعتبار كشف الخداع ـ الذى استشرى ـ معاداة للسياسة. وعن هذا الموضوع نشرت صحيفة النيويورك تايمز مقالاً كان عنوانه الرئيسى: «**ازدياد غضب وشكوك الناخبين، بينما يندحر الأمل، تدهور المزاج إلى وضع بشع بسبب زيادة كشف الشعب لزيف السياسة**».

وتم تخصيص الجزء الخاص باستعراض الدوريات يوم الأحد الماضى للحديث عن المعادين [المجتنبين] للسياسة، ومن الجدير بالملاحظة أنه لم يتم تكريسه لمعارضة القوة والسلطة ـ القوى التى من السهل التعرف عليها والتى تحكم على زمام صنع القرار والتى تلقى بظلها على المجتمع والسياسة ـ وذلك مثلما صاغ چون ديوى الأمر، ويجب أن يكون هؤلاء غير مرئيين.

ونشرت جريدة التايمز مرة أخرى اليوم قصة تدور حول هذا الموضوع، والتى نشروا فيها حرفيًا ما تفوه به رجل غير متعلم، لا يفهم المغزى، فيقول: «حقًا الكونجرس فاسد، فبما أنه عمل [business] كبير فمن ثم هو بالطبع فاسد». وتلك هى القصة التى من المفترض ألا تراها، ومن المفترض أن تصبح مجتنبًا للسياسة، والسبب أن أى شىء كان قد تظنه فى الحكومة ما هو إلا جزء من منظومة المؤسسات التى بمقدورك الاشتراك بها، وتعديلها، وتفعل شيئًا ما حيالها، لكنك لن تستطيع أن تفعل شيئًا حيال مؤسسات الاستثمار، والشركات عابرة للدول، وذلك تبعًا للقانون والمبادئ، وعلى هذا فمن الأفضل ألا يرى ذلك أحد، وينبغى أن تصبح مجتنبًا للسياسة، ويعد هذا انتصاراً آخر تم إحرازه.

وأصبحت حاليًا ملاحظة چون ديوى مخفية، وهى تلك القائلة بأن السياسة هى ظل ألقته الأعمال الكبرى على المجتمع، والتى تصادف أيضًا أن تكون حقيقة بديهية بالنسبة لآدم سميث؛ فلقد قامت المؤسسات الأيديولوچية بنقل القوة التى تلقى بالظل على نحو جيد، وأصبحت فى موقع ناء عن الوعى، فوجدنا أنه تم تركنا مع اجتناب السياسة. وتعد تلك ضربة أخرى قوية موجهة للديمقراطية،

وهبة كبرى لمؤيدى الحكم المطلق، ومنظومات القوة التى لا حصر لها ولا عدد، والتى بلغت مستويات ما كان يمكن لتوماس چيفرسون أو چون ديوى أن يتخيلاها.

ولدينا الاختيارات المألوفة، فيمكن أن نختار أن نصبح ديمقراطيين، وذلك بالمعنى الذى نص عليه توماس چيفرسون، أو قد نصبح أرستقراطيين.

ويعد الاقتراح الأخير هو الاختيار الأسهل، وهو الاختيار الذى تهدف المؤسسات لمكافئته، وقد يجلب هذا الاختيار مكافآت ضخمة باظهار موقع الثروة والامتيازات والنفوذ والأهداف التى يسعون إليها، على نحو طبيعى جدًا.

وأما الاختيار الآخر وهو الديمقراطية على طريق چيفرسون، فهو طريق النضال، وغالبًا ما تحدوه الهزيمة، لكنه أيضًا يكافئ بطريقة ما لا يمكن حتى أن يتخيله من يخضعون لروح العصر الجديد من جنى للثروات ونسيان كل شىء عدا النفس.

ولم يتغير الوضع فى الوقت الحالى عما كان عليه منذ مائة وخمسين عامًا ماضية، عندما ظهرت محاولة لضخ ذلك فى عقول فتيات المصانع فى لويل، والحرفيين فى لورنس . . . إلخ.

ويختلف العالم حاليًا كثيرًا عما كان عليه فى عصر توماس چيفرسون؛ بيد أنه لم يتم تغيير الاختيارات على نحو جوهرى على الإطلاق.

***